الباب التاسع عشر

في أنَّ الصَّبرَ نصفُ الإيمان

والإيمان نصفان: نصف صبر، ونصف شكر.

قال غير واحدٍ من السلف: الصبر نصف الإيمان. وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: الإيمان نصفان نصف صبر ونصف شكر ولهذا جمع الله سبحانه بين الصبر والشكر في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝٥﴾. في سورة إبراهيم، وفي سورة حمّ عسق، وفي سورة سبأ، وفي سورة لقمان، وقد ذكر لهذا التصنيف اعتبارات:

أحدها: أن الايمان اسمٌ لمجموع القول، والعمل، والنية. وهي ترجع إلى شطرين: فعل وترك فالفعل: هو العمل بطاعة الله، وهو حقيقة الشكر، والترك: هو الصبر عن المعصية والدين كله في هذين الشيئين فعل المأمور وترك المحظور.

الاعتبار الثاني: أن الايمان مبني على ركنين: يقين، وصبر، وهما الركنان المذكوران في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ (السجدة: ٢٤) فاليقين يعلم حقيقة الأمر، والنهي والثواب والعقاب والصبر ينفذ ما أمر به ويكف نفسه عما نهى ولا يحصل له التصديق بالأمر والنهي أنه من عند الله والثواب والعقاب إلا باليقين ولا يمكنه الدوام على فعل المأمور وكف النفس عن المحظور إلا بالصبر فصار الصبر نصف الإيمان والنصف الثاني الشكر بفعل ما أمر به وبترك ما نهى عنه.

الاعتبار الثالث: أن الإيمان قول وعمل.

والقول قول القلب واللسان والعمل عمل القلب والجوارح، وبيان ذلك [illegible]

من عرف الله بقلبه ولم يقر بلسانه لم يكن مؤمناً كما قال عن قوم فرعون: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ﴾ (النمل: ١٤) وكما قال عن قوم عاد، وقوم صالح: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ (العنكبوت: ٣٨). وقال موسى لفرعون: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ﴾ (الإسراء: ١٠٢) فهؤلاء حصل قول القلب وهو المعرفة والعلم ولم يكونوا بذلك مؤمنين وكذلك من قال بلسانه ماليس في قلبه لم يكن بذلك مؤمناً بل كان من المنافقين وكذلك من عرف بقلبه وأقر بلسانه لم يكن بمجرد ذلك مؤمناً حتى يأتي بعمل القلب من الحب والبغض والموالاة والمعاداة فيحب الله ورسوله ويوالي أولياء الله ويعادي أعداءه ويستسلم بقلبه لله وحده وينقاد لمتابعة رسوله وطاعته والتزام شريعته ظاهراً وباطناً واذا فعل ذلك لم يكف في كمال إيمانه حتى يفعل ما أمر به.

فهذه الأركان الأربعة هي أركان الايمان التي قام عليها بناؤه وهي ترجع إلى علم وعمل، ويدخل في العمل كف النفس الذي هو متعلق النهي، وكلاهما لا يحصل إلا بالصبر فصار الإيمان نصفين: **أحدهما**: الصبر، **والثاني**: متولّد عنه من العلم والعمل.

الاعتبار الرابع: أن النفس لها قوتان: قوة الإقدام، وقوة الإحجام وهي دائماً تتردد بين أحكام هاتين القوتين فتقدم على ما تحبه وتحجم عن ما تكرهه والدين كله إقدام وإحجام إقدام على طاعة الله وإحجام عن معاصي الله وكل منهما لا يمكن حصوله إلا بالصبر.

الاعتبار الخامس: أن الدين كله رغبة ورهبة فالمؤمن هو الراغب الراهب قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ (الأنبياء: ٩٠). وفي الدعاء عند النوم الذي رواه البخاري في «صحيحه»: «**اللهم إني أسلمت نفسي إليك ووجهت وجهي إليك وفوضت أمري إليك وألجأت ظهري إليك رغبة ورهبة إليك**» فلا تجد المؤمن أبداً إلا راغباً وراهباً والرهبة لا تقوم إلا على ساق الصبر فرهبته تحمله على الصبر ورغبته تقوده إلى الشكر.

الاعتبار السادس: أن جميع ما يباشره العبد في هذه الدار لا يخرج عما ينفعه في الدنيا والآخرة، أو يضره في الدنيا والآخرة، أو ينفعه في أحد الدارين ويضره في الأخرى وأشرف الأقسام أن يفعل ما ينفعه في الآخرة ويترك ما يضره فيها وهو حقيقة الإيمان ففعل ما ينفعه هو الشكر وترك ما يضره هو الصبر.

الاعتبار السابع: أن العبد لا ينفك عن أمر يفعله ونهي يتركه وقدر يجري عليه وفرضه في الثلاثة الصبر والشكر ففعل المأمور هو الشكر وترك المحظور والصبر على المقدور هو الصبر.

الاعتبار الثامن: أن للعبد فيه داعيان: داع يدعوه إلى الدنيا وشهواتها ولذاتها وداع يدعوه إلى الله والدار الآخرة وما أعد فيها لأوليائه من النعيم المقيم فعصيان داعي الشهوة والهوى هو الصبر وإجابة داعي الله والدار الآخرة هو الشكر.

الاعتبار التاسع: أن الدين مداره على أصلين: العزم والثبات وهما الأصلان المذكوران في الحديث الذي رواه أحمد والنسائي عن النبي ﷺ: «**اللهم إني أسألك الثبات في الأمر والعزيمة على الرشد**». وأصل الشكر صحة العزيمة وأصل الصبر قوة الثبات فمتى أيد العبد بعزيمة وثبات فقد أيد بالمعونة والتوفيق.

الاعتبار العاشر: أن الدين مبني على أصلين: الحق والصبر وهما المذكوران في قوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِٱلصَّبْرِ﴾ (العصر: ٣). ولما كان المطلوب من العبد هو العمل بالحق في نفسه وتنفيذه في الناس وكان هنا هو حقيقة الشكر لم يمكنه ذلك إلا بالصبر عليه فكان الصبر نصف الإيمان والله سبحانه أعلم.

□